بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى هذه الطبعة الجديدة

كل كتاب هو استجابة إيجابية لتحدى من التحديات

لقد بدأت الدوافع الفكرية لكتابة هذا الكتاب -قبل خمسة عشر عامًا- لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية التى تستخدم «ورقة الطائفية القبطية» لتشويه صورة المشروع النهضوى الإسلامى، والتخويف من الإسلاميين.

ولقد بدأت هذه التحديات فى شكل تزييف لحقائق الموقف الإسلامى تجاه الآخر الدينى، وتجاه الأقلية القبطية على وجه الخصوص.. وعلى سبيل المثال:

● فالدكتور سعد الدين إبراهيم، بعد أن أنشأت أمريكا له «مركز ابن خلدون»، تبنى الترويج للمشروع الإمبريالى لإعادة تفتيت العالم العربى والإسلامى على أسس دينية وعرقية -«إثنية»- ومذهبية.. مقترحًا إنشاء كيانات سياسية جديدة بناء على هذه التنويعات.. وأخذ -منذ سنة ١٩٩٠م- فى إصدار الكتب والنشرات، وعقد المؤتمرات والندوات، وإلقاء المحاضرات.. واستقطاب أصحاب الفكر الشاذ، من الذين يعبثون فى حقل الفكر الإسلامى دون علم أصيل أو برهان مبين.

● ولقد احترف الدكتور سعد -بعد أن حمل أو حُمِّل القيام بهذا الدور- تزييف الحقائق والوقائع والأرقام والإحصاءات.. ففى كتابه عن [المجتمع والدولة فى الوطن العربى] الصادر سنة ١٩٨٨م- قال: إن

تعداد المسيحيين فى الوطن العربى يبلغ سبعة ملايين.. فلم حُمِّل الرسالة الجديدة وصل بتعداد المسيحيين العرب إلى ثلاثة عشر مليونًا!. أى أنه ضاعف التعداد، خلال عامين، دون أن يكون فى كتابه الجديد [الملل والنحل والأعراق] -الصادر سنة ١٩٩٠م- أى مصدر جديد!!.. حتى لقد علقت -يومها- على هذه «القفزة الديمجرافية» بأن المسيحيين العرب، لو كانوا حبالى -رجالاً ونساءً- وولدوا توائم، لما حققوا هذه القفزة -الديموجرافية التى ابتدعها الدكتور سعد الدين إبراهيم!

● ولقد فتحت الكاتيدرائية الأرثوذكسية -بالعباسية- التى بنتها الدولة المصرية فى عهد الرئيس جمال عبد الناصر- أبواب قاعتها الكبرى ليحاضر فيها الدكتور سعد الدين إبراهيم عن مخاطر تطبيق الشريعة الإسلامية -فى مصر- على الأقباط- وهى الشريعة التى عاش الأقباط فى ظلالها أكثر من ثلاثة عشر قرنًا- والتى تركتهم وتتركهم وما يدينون فى عقائدهم وخصوصياتهم الدينية.. والتى تمثل -بالنسبة لهم- قانونًا وضعياً سنه «قيصر» - الذى أمرهم المسيح -عليه السلام- أن يعطوه شئون السياسة والدولة والقانون، وأن يقفوا عند ما لله ومملكة السماء وتوبة الخطاة وخلاص الأرواح.. فضلاً عن أن هذه الشريعة هى خيار الأغلبية، والبديل لقانون نابليون!

وفى محاضرة الدكتور سعد، دار النقاش، وارتفعت الأصوات التى قال بعضها: **إن أخطر حزب فى مصر هو حزب صلاة الجمعة فى مساجد المسلمين!!**

ويومئذ دعانى المرحوم الأستاذ جمال بدوى -وكان رئيسًا لتحرير

صحيفة «صوت الأزهر» -لمساندته فى التصدى لهذه الافتراءات- فكانت بداية كتابة دراسات هذا الكتاب، لمواجهة هذه التحديات.

● وفى مجلة «وجهات نظر» -عدد مارس سنة ٢٠٠٠م- كتب الأستاذ محمد حسنين هيكل عن التوتر الطائفى فى مصر، وألقى بتبعته على الرئيس محمد أنور السادات -أى على الدولة- مبرئًا البابا شنودة والكنيسة من أوزار هذا التوتر - وذلك انطلاقًا من مذهب هيكل فى «تصفية الحسابات» مع الرئيس السادات!..

ويومئذ كتبت دراسة تفند هذا الادعاء.. لكن المجلة أحجمت عن نشرها، مجاملة «لولى النعم» الأستاذ هيكل -الذى خالف وقائع التاريخ، وحُكم مجلس الدولة سنة ١٩٨٣م- فكانت هذه الدراسة واحدة من بناء هذا الكتاب.

● ولقد بلغ الافتراء حد التزييف لحقائق التاريخ الذى كتبه ووثقه المؤرخون الوطنيون الثقاة.. فتحدث البعض عن الخط الهمايونى الذى لا يزال يحكم بناء الكنائس فى مصر- بل وسعوا إلى رفع دعاوى أمام المحاكم ضد الحكومة المصرية، بزعم أنها تطبق هذا الخط الهمايونى على الأقباط، رغم ذهاب الدولة العثمانية -التى أصدرته- إلى ذمة التاريخ منذ ما يزيد على ثلاثة أرباع القرن!

ومن هنا جاءت إحدى دراسات هذا الكتاب، التى توضح أن الخط الهمايونى -وترجمته- «المرسوم الشريف»- كان إعلانًا تقدميًا لإنصاف الأقليات، وللمساواة بينها وبين المسلمين من رعية الدولة العثمانية.. ثم -وهذا هو الأهم- أن هذا الخط الهمايونى لم يكن مطبقًا فى مصر فى

أى يوم من الأيام -كقانون- وإنما كان مجرد إعلان عام للحقوق.. فمصر لها استقلال فى القانون والحقانية والتشريع منذ عهد محمد على باشا [١١٨٤ - ١٢٦٥هـ/ ١٧٧٠ - ١٨٤٩م].. تحكمها قوانينها الوطنية.. حتى أن «مجلة الأحكام العدلية» التى وضعتها الدولة العثمانية قانونًا للمسلمين سنة ١٨٦٩م لم تطبق هى الأخرى فى مصر -بسبب استقلالها القانونى والتشريعى-.. وظلت اللوائح المصرية هى الحاكمة والمنظمة لشئون الطوائف المسيحية.. وظل قرار مجلس الوزراء المصرى سنة ١٩٢٧م هو المنظم لبناء الكنائس والمعاهد الدينية.. وليس الخط الهمايونى -الذى احترف المزيفون الكذبة الحديث عنه والتخويف به ومنه!

***

لهذه الوقائع -وأمثالها كثير- ولهذه التحديات -التى بدأ زرعها أمام الخيار الإسلامى فى النهضة- والتى انهالت الدولارات لتمويل «أنشطتها».. كانت الاستجابة الفكرية التى تمثلت فى تأليف هذا الكتاب.

ولأن هذه التحديات لا تزال قائمة.. بل ولربما تعاظمت وتتعاظم للالتفاف على هذا الانتصار العظيم الذى مثلته ثورة الشعب المصرى فى ٢٥ يناير سنة ٢٠١١م- كانت هذه الطبعة الجديدة لهذا الكتاب.. الذى نرجو الله -سبحانه وتعالى- أن يتقبله خالصًا لوجهه الكريم.. وأن ينفع به ضوءًا كاشفًا عن الحق والحقيقة.. إنه -سبحانه- خير مسئول وأكرم مجيب.

سنة ٢٠١١م

دكتور

محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

كاتب هذه الدراسة، ولد ونشأ وتكون وعاش فى «مدرسة القرآن الكريم»..

فقبل الولادة، وأنا جنين فى أحشاء والدتى، نذر والدى -عليه وعلى الوالدة رحمة الله ورضوانه- نذر لله، سبحانه وتعالى:

- إذا جاء هذا المولود ذكرًا، أسميه محمدًا.. وأهبه للعلم..

والعلم، بالإطلاق والتعريف والتعميم -فى ريف مصر يومئذ.. قبل سبعين عاما- وفى ثقافة الفلاح المتدين- هو علم القرآن الكريم.. وليس سواه..

وعبر كُتَّاب القرية.. والقرآن الكريم.. والأزهر الشريف.. ودار العلوم.. غدوت شيخًا، أخطب الجمعة، وأعظ الناس فى المسجد، وأؤمهم فى الصلاة، وأفتيهم فى شئون الفقه والدين..

وعندما أضفت إلى علم الدين وثقافة التراث -منذ وقت مبكر- علم الدنيا، وثقافة السياسة والاجتماع والاقتصاد، كان ذلك عبر تنظيمات سياسية- منها «مصر الفتاة» و«الحزب الاشتراكى» - جمعت- فى فكريتها- بين دوائر الانتماء الوطنى المصرى، والقومى

العربى، والحضارى الإسلامى.. وزاملت فيها عددًا من المناضلين النصارى، وأيضًا اليهود.. جمعتنا فيها النضالات السياسية والاجتماعية ضد الاستعمار والاستغلال.. وأصبحت لى صداقات وألفة مع العديد من غير المسلمين.. **لا أقول: «رغم ثقافتى الإسلامية» بل «بسبب هذه الثقافة الإسلامية»!..**

وعندما انفتحت ثقافتى على العالم، ورأيت عظمة النموذج الإسلامى فى ضوء النماذج الحضارية الأخرى، تعلمت من الإسلام وفهمت ما لم يتعلم ويفهم الكثيرون.. **تعلمت وفهمت عظمة اعتراف الإسلام بكل «الآخرين» حتى هؤلاء الذين لا يعترفون به دينًا سماوياً، ولا بكتابه وحيًا إلهياً، ولا بنبيه محمد ﷺ رسولا!..**

وعندما تفرغت للمشروع الفكرى -قبل أكثر من ثلث قرن- زاملت فى الحياة الفكرية عددا من رموز المفكرين والمثقفين الأقباط[1].. جمعتنا لقاءات معاناة تلمس الطريق إلى الإبداع والتجديد والاجتهاد.. واتفقنا واختلفنا، لكن فى الإطار الجامع لنا جميعًا: **«سفينة» الوطن والوطنية، والتنمية الاجتماعية الشاملة والمستقلة، والمشروع الحضارى العربى الإسلامى المتميز، الذى رأيناه سبيل أمتنا للإقلاع الحضارى، والانعتاق من المأزق الخانق الذى تردينا فيه.. مأزق التخلف الموروث، والهيمنة الغربية، وفقدان الاتجاه..**

---

(١) كلمة «قبطى» معناها مصرى.. فالمسلمون المصريون هم أقباط مسلمون.. والنصارى المصريون هم أقباط نصارى.. لكننا -مجاراة لما هو شائع وشهير- سنستخدم كلمة قبطى بمعنى نصرانى مصرى.

- وكانت «الوحدة الوطنية» من أولى القضايا التى عشت فكرها، ومارست بناءها، منذ تفتح الوعى السياسى لدى، مع المظاهرات الأولى التى شاركت فيها -وأنا فى السنة الأولى بالمعهد الابتدائى الدينى، بمدينة «دسوق»- ضد مشروع معاهدة «صدقى- بيفن» سنة ١٩٤٦م.. فبدون الوحدة الوطنية، لن يكون هناك تحرر وطنى..

- ومنذ أن تعلمت الخطابة، وبدأت الكتابة حول قضية فلسطين سنة ١٩٤٧م.. كانت الوحدة الوطنية حاضرة فى ثقافتى، لأنها هى السبيل إلى دائرة الانتماء العربى والقومى، الذى هو حلقة الوصل بين الدائرة الوطنية والدائرة الحضارية الإسلامية.. وبهذه العلاقات الشرطية بين «الوحدة الوطنية» و«القومية العربية» و«الحضارة الإسلامية»، **تعلمت أن العاجز عن بناء الوحدة الوطنية لن ينجز وحدة عربية ولا جامعة إسلامية، لأن «ساقط الابتدائية» يستحيل عليه «النجاح فى الدكتوراه»!..**

- وفى المعركة ضد الاستغلال، وفى سبيل العدل الاجتماعى، تعلمت دروس الوحدة الوطنية، لأن الاستغلال لا دين له، ولأن العدل فريضة إلهية، واسم من أسماء الله، سبحانه وتعالى، لا يمكن أن يقوم إذا كانت هناك تفرقة فيه بسبب الدين أو اللون أو الاعتقاد.. فالإسلام يجعل العدل فريضة واجبة حتى مع المخالفين، بل ومع من نكرههم ويكرهوننا ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ [المائدة: ٨].

وعندما أوصى على بن أبى طالب واليه على مصر -«الأشتر النخعى» (٣٧هـ- ٦٥٧م)- بالعدل، نبهه على فريضة تعميم العدل على كل أهل مصر- الذين لم يكن قد عمهم الإسلام فى ذلك الحين -**لأن الناس- كما قال الإمام على-: «صنفان: إما أخ لك فى الدين، أو نظير لك فى الخلق..»**[1].

- وعندما زاد فقهى فى الإسلام، ونموذجه الحضارى، وتميزه وامتيازه عن النماذج الحضارية الأخرى، أدركت مقام الوطن والوطنية -ومن ثَمَّ الوحدة الوطنية- فى الإسلام..

فالإسلام، وحده، هو الدين الذى لا يقوم ولا تكتمل إقامة كل فرائضه إلا فى وطن.. وإذا كان النصرانى يقيم أعلى نماذج النصرانية فى «الرهبانية» التى لا علاقة لها بالوطن أو الوطنية أو الجماعة والأمة والاجتماع.. وإذا كانت اليهودية قد عاشت تاريخها -إلا لحظات استثنائية- دون وطن يهودى.. فإن فرائض الإسلام الاجتماعية، التى جاء الخطاب بها وفيها للأمة والجماعة، لا تقوم إلا فى وطن ودولة وأمة ومجتمع ونظام واجتماع.. بل إن «رهبانية الإسلام» هى الجهاد، الذى لابد له وفيه من جماعة وأمة ووطن واجتماع.. **وبدون الوحدة الوطنية لا قيام لأى من هذه المعالم، التى هى السبيل لإقامة كامل الإسلام..**

---

(١) (نهج البلاغة) ص ٣٣٤. شرح الإمام محمد عبده. وتحقيق: محمد أحمد عاشور، محمد إبراهيم البنا. طبعة دار الشعب. القاهرة.

• وعندما زاد فقهى فى التاريخ الإسلامى، تبينت أن هذه الأمة قد صنعت كل هذا التاريخ فى مواجهة التحديات.. فغزوات الإسلام الأولى كانت مواجهة مع تحدى الشرك والجاهلية والوثنية.. وفى هذا الواقع، وأمام هذا التحدى، أنجزت الدولة الإسلامية الأولى -منذ قيامها، عقب الهجرة إلى المدينة (١هـ- ٦٢٢م)- أولى أشكال الوحدة الوطنية، عندما قننت «الصحيفة» -دستور دولة المدينة- هذه التعددية الدينية فى الرعية، ونصت على **«أن المؤمنين -من المهاجرين والأنصار- هم أمة واحدة من دون الناس.. وأن اليهود -من رعية الدولة- أمة مع المؤمنين.. لليهود دينهم وللمسلمين دينهم.. وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.. ولهم ما للمسلمين من النصر والأسوة والبر دون الإثم.. وبينهم النصر على من دَهَمَ يثرب -(الوطن)- الذى هو حرم لجميع أهل هذه الصحيفة..»**[1].

وكانت فتوحات الإسلام -فى القرن الهجرى الأول- مواجهة مع تحديات قوى الهيمنة والاستعمار والاستغلال والقهر الحضارى لشعوب الشرق -الفرس والروم- ثم استمر تاريخ الأمة ينمو.. وعودها يُعْجَم فى التدافع والصراع مع الاستعمار الغربى وأحلافه ضد الإسلام وأمته وحضارته ودياره.. مع القسطنطينية، التى ظلت تُجَيِّش الجيوش ضد بلاد الإسلام حتى فتحها العثمانيون (٨٥٧هـ- ١٤٥٣م) ونقلوا المعركة

---

(١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ١٥-٢١- جمعها وحققها: دكتور محمد حميد الله الحيدر آبادى.. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

إلى قلب أوربا.. وضد الحملات الصليبية التى دامت قرنين من الزمان (٤٨٩- ٦٩٠هـ- ١٠٩٦- ١١٩١م).. وضد الحلف «الصليبى- التترى». الذى هدد الوجود الإسلامى بالدمار والزوال.. وحتى الحلف «الغربى- الصهيونى»، الذى ما زلنا نعالج تحديه حتى الآن..

وبهذه الحقيقة.. حقيقة نشوء تاريخنا ونموه فى خضم هذه التحديات- يعترف الغربيون.. وبلسانهم ينطق القائد والكاتب الإنجليزى «جلوب باشا» عندما يقول: «**إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد**»!!..

وطوال تاريخ هذه التحديات كانت الوحدة الوطنية هى «حبات العيون» التى يحرص على سلامتها وعافيتها الذين يدركون شراسة ومخاطر كل تلك التحديات.. فلقد لعب فيها الصليبيون.. والتتار.. وفرنسا -«لويس التاسع» (١٢١٤- ١٢٧٠م) و«بونابرت» (١٧٦٩- ١٨٢١م)- من مصر إلى المغرب وحتى بغداد والشام.. وكذلك فعل الإنجليز.. وروسيا القيصرية.. وتفعل أمريكا والصهيونية هذه الأيام..

• بل لقد تعلمت من «**الفقه الإسلامى للوحدة الوطنية**»، أن الله، سبحانه وتعالى، إذا كان قد امتن على الجماعة المسلمة بأنه هو الذى ألف بين قلوبها ﴿**وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾ [الأنفال: ٦٣].. **فإنه، سبحانه، قد جعل التأليف بين من اطمأنت قلوبهم للإيمان الإسلامى وبين**

من لم يجمعهم بالمسلمين هذا الجامع واحداً من مقاصد النظام الإسلامى.. فتأليف قلوب المؤلفة قلوبهم هو منهاج إسلامى عميق الدلالات، متسع الآفاق، لبناء الوحدة الوطنية بين الرعية، التى جمعها الوطن الواحد، ولكن لم يجمعها الإيمان بعقيدة الإسلام.. وهو منهاج لا أعتقد أنه قد أخذ ما يستحق من الدراسة، ولا استفادت منه الأمة على النحو اللائق حتى الآن.. فكما وقف فقهاؤنا، فى ضرب الأمثال على فروض الكفاية -أى الفرائض الاجتماعية- عند مثال «صلاة الجنازات».. دون أن يبصروا أبعاد وأوزان الفرائض الاجتماعية، الجامعة للأمة، والمؤسسة للوطن والدولة والسياسة والاجتماع والحضارة.. وقف هذا الفقه بعيداً عن الدلالات الكبرى لتشريع المؤلفة قلوبهم، كمقصد دائم وفريضة مستمرة لبناء الوحدة الوطنية للرعية، التى اختلفت فى قلوبها المعتقدات..

- كذلك، تعلمت من سنن القرآن الكريم، ومن القوانين الإلهية التكوينية التى لا تبديل لها ولا تحويل، والتى حكمت وتحكم ظواهر التقدم والتخلف.. والنهوض والتراجع.. والقوة والضعف.. والتلاحم والتشرذم.. تعلمت أن التعددية -التى هى سنة إلهية فى كل ما عدا ومن عدا الذات الإلهية.. وبكل عوالم الجماد والنبات والحيوان والإنسان والأفكار والأجناس والألوان والألسنة واللغات والقوميات.. والشرائع والمناهج والثقافات والحضارات.. تعلمت أن هذه التعددية -فى معناها الإسلامى- لا وجود لها إذا لم تكن تنوعًا وتمايزًا فى إطار الوحدة الجامعة للتمايز والتنوع والاختلاف..

فـالناس شعـوب وقبـائل، فى إطار الوحدة الإنسـانية الجـامعـة.. وكذلك الحال مع اللغات والقوميات والشرائع والثقافات والحضارات..

وأيضًا رعيـة الوطن وأمة الدولة، التى عرفت التعددية منذ صـحيفة دولة المدينة، على عهد رسول الله ﷺ، **لا وجود ولا قيام لهـذه التعددية إلا فى إطار وحدة المرجعية الحضارية، والقـبلة الثقافية الواحدة، والاتفاق فى منظومة القيم والأخلاق**.. وعن هذه الحقيقة -حقيقة تنوع واختلاف وتمايز الرعية فى إطار الوحدة الجامعة- عبرت الوثيقة المنهجية الأولى فى تراثنا الدستورى والسـياسى -صحيفة دولة المدينـة- عندما تحدثت عن التنوع القبلى والاخـتلاف الدينى فى رعية دولة المـدينة، ثم جعلت هذا التنوع فى إطار «**جامـع المرجعـية الواحـدة**».. **فنصت على أنه «.. ما كـان من أهل هذه الصحيـفة من حدث أو اشتـجار يُخاف فساده، فـإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله ﷺ..**»[1].

ولقد تجـسد هذا المنهـاج الحضارى، عـبر التاريـخ الإسلامى، على مختلف الصـعد وفى كل الميادين.. فتنوعت الشـرائع الدينية للأمة فى إطار المنظومة الإيمانية والأخلاقية للدين الإلهى الواحد..

وتنوعت لغات الرعية وقومياتها فى إطار وحدة الأمة..

وتنوعت الأقـاليم والولايات الإسـلامـيـة فـى إطار وحـدة دار الإسلام..

---

(١) (مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة) ص ٢١.

وتنوعت المذاهب الإسلامية فى إطار ثوابت الشريعة الواحدة.. **فكانت الحضارة الإسلامية الواحدة إنجازًا إسلامياً بلوره وأسهم فى بنائه كل الفرقاء الذين تمايزوا فى الدين والمذاهب واللغات والأقاليم..**

ولقد عرفت الأمة -كل الأمة- هذه الحقيقة.. فانتسبت كل شعوبها وقومياتها إلى الحضارة الواحدة والأمة الواحدة.. وانتسبت كل المذاهب الإسلامية إلى الشريعة الواحدة.. وانتمت كل الأقاليم والأوطان إلى دار الإسلام..

وكذلك كان الحال دائمًا وأبدًا مع غير المسلمين من أبناء هذه الأمة الواحدة، الذين احتفظوا بشرائعهم الدينية -السماوية منها والوضعية- مع الانتماء إلى الحضارة والثقافة التى اصطبغت بالصبغة الإسلامية، بعد أن استوعبت كل المواريث القديمة والشرائع السابقة فى سماتها وقسماتها.. وبعد أن أسهموا هم -مع مواطنيهم المسلمين- فى بنائها، فغدت الإنجاز المشترك للجميع، والتجسيد لمنظومة القيم الإيمانية المشتركة.. وبعبارة فقيه الأمة الدكتور عبد الرزاق السنهورى باشا (١٣١٣- ١٣٩١هـ- ١٨٢٥- ١٩٧١م): «**فإن المدنية الإسلامية هى ميراث حلال للمسلمين والمسيحيين واليهود من المقيمين فى الشرق، فتاريخ الجميع مشترك، والكل تضافروا على إيجاد هذه المدنية**»[١].

---

(١) (عبد الرزاق السنهورى من خلال أوراقه الشخصية) ص ١١٨. إعداد: دكتورة نادية السنهورى، دكتور توفيق الشاوى. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٨م.

• وعلى مر التاريخ دافعت كل الأمة عن كل ديار الإسلام ضد كل الغزاة لهذه الديار.. ودافعت أيضًا -كل الأمة- عن الحضارة والثقافة والقيم الإيمانية المشتركة ضد غزو الآخر الفكرى لهذه الحضارة الإسلامية والثقافة الإسلامية.. اللهم إلا القلة القليلة التى سقطت فى شراك الخيانة، فوقفت مع جيوش الغزاة.. أو فى شراك الغواية، فخانت ثقافتها وحضارتها، وسلكت سبيل التبعية الفكرية والعمالة الحضارية للآخرين..

وإذا كنا نتعلم من العقل والنقل، ومن التجربة والوجدان أن لا نسوى بين «**الوطنية**» وبين «**الخيانة**».. وأن لا نسوى بين «الاستقلال» وبين «**التبعية**».. وأن لا نسوى بين لبنات «**البناء**» المرصوص للأمن الوطنى والقومى والحضارى وبين «**ثغرات**» الاختراق لهذا البناء.. فلابد وأن نميز -ونحن نتحدث عن الوحدة الوطنية- بين دعاتها وصناعها والشاهدين عليها.. وبين أولئك الذين حاولوا ويحاولون خرق سفينتها والالتحاق بسفن الآخرين!..

وإلا، فمن ذا الذى يسمح له الضمير الوطنى والقومى والحضارى أن يسوى بين: المعلم «يعقوب حنا» (١١٥٨- ١٢١٦هـ- ١٧٤٥- ١٨٠١م) الذى خان مصر وأمتها وتاريخها وانتماءها الحضارى.. وخان أقباط مصر وكنيستهم، عندما جند -٢٠٠٠- من «أراذل القبط»، وجعلهم جزءًا من جيش الحملة الفرنسية على مصر (١٢١٣- ١٢١٦هـ- ١٧٩٨- ١٨٠١م) واشترك معهم فى قتل وحرق وتدمير

القرى المصرية وسكانها، حتى أصبح «جنرالا» فى جيش الغزاة!..
فلما انهزمت الحملة الفرنسية، وجلت عن مصر (١٢١٦هـ- ١٨٠١م) خرج -مع نفر من أتباعه- فى ركابها، وكتبوا إلى إنجلترا يغرونها بفصل مصر عن تراثها الحضارى ومحيطها الإسلامى، وإلحاقها بأوربا، وإخضاعها للنفوذ الإنجليزى بواسطة قوة أجنبية قوامها «بين ١٢,٠٠٠ و١٥,٠٠٠» يتكفل أهل مصر «المسالمون الجهلاء» -حسب وصف المعلم يعقوب- بدفع نفقاتها!![١].

من الذى يستطيع أن يسوى بين المعلم «يعقوب اللعين» هذا وبين جمهور الأقباط وكنيستهم، الذين رفضوا الخيانة، وكانوا عونا لإخوانهم ومواطنيهم المسلمين فى مقاومة الغزاة؟!..

ومن الذى يستطيع أن يسوى بين خلفاء المعلم يعقوب، الذين سعوا -بعد هلاكه- فى دوائر الإمبراطورية الفرنسية الاستعمارية، كى تواصل -بواسطتهم- اختراق مصر تشريعياً وثقافياً، فتعهدوا -لبونابرت- «بأن يشرعوا لمصر ما ترضاه لها فرنسا من نظم»[٢].. كما عرضوا على وزير خارجية فرنسا «تاليران» (٧٥٤- ١٨٣٨م) تسخير الكنيسة المصرية -الأرثوذكسية- فى مد نفوذ الكنيسة الرومانية- الكاثوليكية- نحو أواسط أفريقيا- عن طريق الحبشة- الأرثوذكسية- وذلك تحقيقًا لمطامع لويس الرابع

(١) دكتور أحمد حسين الصاوى (المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة) ص ١٢١- ١٢٧. طبعة القاهرة سنة ١٩٨٦.

(٢) المرجع السابق. ص ١٢٩- ١٣٠.

عشر (١٦٣٨- ١٧١٥) «مد نفوذه السياسى نحو أقاليم وسط أفريقيا الجذابة الغامضة»[١]!! وذلك حتى تتحقق لفرنسا الجمهورية أحلام فرنسا الملكية!..

من الذى يسوى بين خلفاء المعلم يعقوب اللعين هؤلاء.. وبين إباء الكنيسة الأرثوذكسية الوطنية واستعصائها على محاولات الاختراق التى مارستها المذاهب النصرانية الغربية -الكاثوليكية الفرنسية.. والبروتستانتية الأمريكية والإنجليزية- بل ورفضت حتى النفوذ- فضلاً عن الحماية- عندما عرضتهما عليها الأرثوذكسية الروسية؟!.

- ومن الذى يستطيع أن يسوى بين يوسف وهبة باشا (١٢٦٩- ١٣٥٣هـ- ١٨٥٢- ١٩٣٤م) الذى خرج على إجماع الأمة، وقبل أن يخون ثورة سنة ١٩١٩م، ويؤلف الوزارة فى حماية حراب الإنجليز، إبان مقاطعة الشعب الثائر لسلطات الاحتلال -وبين الشاب القبطى عريان يوسف سعد، الذى تطوع لاغتيال يوسف وهبة باشا -كى لا تكون فتنة إذا اغتاله أحد المسلمين-؟!.. وكذلك القس سرجيوس ملطى (١٣٠٠- ١٣٨٤هـ- ١٨٨٣- ١٩٦٤م) الذى خطب الأمة، من على منبر الأزهر -إبان ثورة سنة ١٩١٩- معلنا رفض حماية الاحتلال للأقباط، وقال: «**إذا كان الإنجليز هم الذين سيحمون الأقباط، فليمت كل الأقباط، ولتحيا مصر حرة مستقلة**»!.. فكانت الحياة للجميع..

---

(١) المعلم يعقوب بين الحقيقة والأسطورة. ص ١٣١- ١٣٣.

ومن الذى يسمح له ضميره الوطنى والثقافى والحضارى أن يسوى بين مكرم عبيد باشا (١٣٠٧- ١٣٨٠هـ- ١٨٨٩- ١٩٦١م) الذى تسلح ببيان القرآن الكريم وبلاغته ليدافع عن الوطن والوطنية دفاع الشهداء.. والذى سلك الانتماء الدينى النصرانى فى سلك الوطنية المصرية والثقافة العربية والحضارة الإسلامية، انطلاقا من حقيقة **أن الإسلام إذا كان، بالنسبة للمسلم: عقيدة وثقافة وحضارة، فإنه بالنسبة لغير المسلم: ثقافة وحضارة.. فقال مكرم عبيد: «نحن مسلمون وطنا، ونصارى دينا، اللهم اجعلنا نحن المسلمين لك، وللوطن أنصارا، واللهم اجعلنا نحن نصارى لك، وللوطن مسلمين»**[١].

من الذى يستطيع أن يسوى بين وطنية مكرم عبيد هذا.. وعروبته، التى جعلته يدافع عن عروبة مصر -منذ ثلاثينيات القرن العشرين- وعن النظام العربى- قبل قيام الجامعة العربية- فيقول: «**المصريون عرب.. والوحدة العربية من أعظم الأركان التى يجب أن تقوم عليها النهضة الحديثة فى الشرق العربى.. إنها حقيقة قائمة وموجودة، لكنها فى حاجة إلى تنظيم، لتصير البلاد العربية كتلة واحدة، وتصير أوطاننا جامعة وطنية واحدة..**»[٢].

من الذى يستطيع أن يسوى بين مكرم عبيد هذا -وأمثاله فى أقباط مصر كثيرون- وبين سلامة موسى (١٣٠٥- ١٣٧٧هـ- ١٨٨٨- ١٩٥٨م) الذى صاغ مذهبه -فى العمالة الحضارية- بهذه السطور:

---

(١) صحيفة (الوفد) فى ٢١/ ١/ ١٩٩٣م.

(٢) مجلة (الهلال) عدد إبريل سنة ١٩٣٩م.

«كلما ازددت خبرة وتجربة وثقافة، توضحت أمامى أغراضى.. وهى تتلخص فى أنه:

- يجب علينا أن نخرج من آسيا، وأن نلتحق بأوربا، فإنى كلما زادت معرفتى بالشرق زادت كراهيتى له، وشعورى بأنه غريب عنى. وكلما زادت معرفتى بأوربا، زاد حبى لها، وتعلقى بها، وزاد شعورى بأنها منى وأنا منها.

- أريد تعليمًا أوربيًا لا سلطان للدين عليه ولا دخول له فيه..

- وحكومة كحكومات أوربا.. لا كحكومة هارون الرشيد والمأمون..

- وأدبًا أوربيًا.. أبطاله مصريون.. لا رجال الفتوحات العربية..

- وثقافة أوربية.. لا ثقافة الشرق.. ثقافة العبودية والذل والتوكل على الآلهة..

- واللغة العامية.. لغة الهكسوس.. لا العربية الفصحى، لغة التقاليد العربية والقرآن..

- والتفرنج فى الأزياء، لأنه يبعث فينا العقلية الأوربية..

هذا هو مذهبى، الذى أعمل له طول حياتى، سراً وجهرة.. فأنا كافر بالشرق، مؤمن بالغرب..؛ لأنه إذا كانت الرابطة الشرقية سخافة، فإن الرابطة الدينية وقاحة لا تليق بأبناء القرن العشرين»[1]!!

---

(١) سلامة موسى (اليوم والغد) ص ٥-٧ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨م.

وتلميذ سلامة موسى، الدكتور لويس عوض (١٣٣٣- ١٤٠٩هـ- ١٩١٥- ١٩٨٩م) الذى **وصف اللغة العربية بأنها «الأغلال» التى يجب تحطيمها، لإحلال العامية محلها.. وبأنها «لغة دخيلة.. وميتة»!!.. ووصف القومية العربية بأنها «عرقية.. عنصرية.. وفاشية.. وأسطورة من الأساطير»**[1]!!..

إنهم لا يستوون.. وليسوا سواء، بأى مقياس من المقاييس..

● وكذلك الحال، فى المشهد الراهن للوحدة الوطنية فى بلادنا..

فلا يمكن ولا يجوز للضمير الوطنى والثقافى والحضارى أن يسوى بين الضباط والجنود الأقباط الذين عاشوا مع رفاقهم المسلمين -فى الجيش المصرى- ملحمة انتصارات رمضان سنة ١٣٩٣هـ- أكتوبر سنة ١٩٧٣م- فصاموا رمضان معًا.. واقتحموا «خط بارليف» جميعًا، وهم يهزون الأرض والسماء بنداء «الله أكبر»، ليجسدوا -بالدماء والفداء والاستشهاد- أول انتصارات الأمة على الصهيونية وجيشها..

لا يمكن التسوية بين هؤلاء الأبطال وبين أولئك العملاء -من بعض أقباط المهجر- الذين يستعدون الإمبريالية والصهيونية على مصر، ويصدرون النداءات المحمومة- باسم «منظمة التحرير القبطية»- إلى

---

(١) انظر كتابنا (جمال الدين الأفغانى بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض) ص ١٨- ٢٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٧م.

قوات «المارينز» الأمريكية والجيش الإسرائيلى، ليعاونهم فى «تحرير» مصر من الإسلام والمسلمين!!..

- كذلك، لا يستطيع الضمير الوطنى أن يسوى بين القيادات الكهنوتية للكنيسة المصرية، تلك التى التزمت الرسالة اللاهوتية والتقاليد التاريخية للكنيسة -خلاص الروح، ومملكة السماء- وتركت مالقيصر لقيصر.. وبين تلك القيادات التى خرجت عن رسالة الكنيسة، وأرادت اغتصاب مالقيصر، وتحويل الكنيسة إلى «مشروع طائفى»، و«قيادة سياسية»، و«بروفة لدولة»، تسحب الأقباط من العمل الوطنى العام، فصنعت بذلك شرخًا فى الوحدة الوطنية المصرية غير مسبوق..

إن تلاميذ المعلم يعقوب اللعين -الذين سقطوا فى حبال الخيانة الوطنية-.. وتلامذة سلامة موسى -الذين سقطوا فى شراك العمالة الحضارية- لا يمكن أن تختلط أوراقهم السوداء بالصفحات الناصعة والمشرقة للانتماء الوطنى والقومى والحضارى الإسلامى، لنخبة وجمهور الأقباط المصريين..

***

وإذا كان حقل الوحدة الوطنية -ككل الحقول- حافلا بكثير من الحقائق.. وأيضًا بالعديد من الأكاذيب..

فحتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود.. ويميز الخبيث من الطيب.. فلابد من فرز الحقائق عن الأكاذيب..

ولتلك المهمة نقدم هذه الدراسة إلى الباحثين والقراء.. سائلين الله أن ينفع بها أبناء وطننا وأمتنا.. وأن يتقبلها خالصة لوجهه الكريم.. إنه، سبحانه، خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور
محمد عمارة

سنة ٢٠١١م

●●●

obeikandl.com